جنّة الأرض

تغاريد الشّحارير, حفيف أوراق الشّجر, انسياب مياه النّهر.. هكذا مُلِأت سكينة النّهار. طلعت الشّمس في السّماء وفردت وشاحها الذّهبيّ، فانسكبت أشعّتها على أشجار الزّيتون والياسمين والصّفصاف. وانبسط تحت قدمي بساطٌ من العشب الأخضر المفروش بشتّى أنواع الأزهار من البنفسج والنّرجس - حتّى الأقحوان - وقد تلاعب النّسيم بأغصانها، كأنّ النّسيم أنفٌ خفيٌّ يروم شمّها، فتناثرت روائحها العطرة..نظرت من حولي, تارةً يميناً وطوراً آخر يساراً، رحت أتأمّل فلفّ الجمال بصري.. لكن أين أنا؟

أخذت أمشي في ذاك الحقل حتّى بان لي قطيع خراف مرتعية رؤوس الأعشاب. ورأيت خيلاً بجانب شجرة وقد تبينت لي فتاةٌ مرتديةٌ فستاناً أحمر اللون، ضيق الخصر، ذي أكمام واسعة، ترعاه وتملّس على ظهره. وبجانبها على الأرض، سلّةٌ ملأها التّفاح. رحت أراقبها، ناظرت وجهها، فرأيت شفاها تتحرّك، خلتها تكلّم خيلها أوّلاً، فاقتربت قليلاً دون أن تلاحظني، فانساب صوتها على مسامعي.. كانت تغنّي أغنية المطربة فيروز: " نسّم علينا الهوا من مفرق الوادي..يا هوا دخل الهوا..خدني على بلادي...". وهي تغنّي جاء من خلفها شابٌّ و سلّل يديه على خصرها. تبسّمت له، فبدا أنّه حبيبها.

مشى الحبيبان جنباً إلى جنب يأكلان التّفاح، يرميان ابتسامات لبعضهما الآخر. راحت الفتاة تغنّي مجدّداً، لكن هذه المرّة بأغنية أخرى. فراحت تناظر حبيبها وهي تقول: "أنا لحبيبي وحبيبي إلي.." ويناظرها هو بالتالي بنظراتٍ ملؤها الحبّ. توقّفا عن المشي والغناء حين وجدا أنفسهما أمام أعمدةٍ رخاميّة منتصبة تشعُّ تحت نور الشّمس. هي آثارٌ خلّدها التّاريخ، تاريخ الآباء والأجداد في مكاني هنا.

هي تماثيل مهشّمة ملقاة. هي آثارٌ متبقّية من مدن الأقدمين ومعابدهم وقصورهم. هي تمنحنا لمحةً مقتطفة عن حياة الأوّلين، إذ أنّها الخيط الوحيد المتبقّي الذي يظهر لنا حياة أجدادنا من آلاف السّنين، بما في ذلك من معبد جوبيتر، وكذلك معبد باخوس، مروراً بقلاع أثريّة عديدة تذهل العقل من دقّة تصاميمها. إنّ هذه الآثار هي بمثابة المرجع الّذي نعود إليه للإطّلاع على حكايات الزّمن، وهي المرجع الّذي نقارن به انجازاتنا كي نشعر بأنّنا قد تفوّقنا واستحدثنا من عمارتنا وبنائنا بالنّسبة مع ما مضى على الأجيال الماضية.

تركت العاشقين وحدهما وذهبت في سبيلي أجول في المروج وأنا أراقب الأشجار، من الزّيتون إلى التّين. دنوت من شجرة التّين و قطفت كوزاً أبيضاً قد شعرته يناديني لانتقائه، لكن عندما اقتربت من جذع الشّجرة لفتتني الأحرف المنقوشة عليه، "م.ح" و "ي.س" وغيرها من نقشاتٍ عديدة قد محى الزمن بضعاً منها فباتت غير واضحة. ورحت أخاطر نفسي: "أواه كم من أجيالٍ مرّت من هنا ونقشت على جذوع هذه الأشجار أحرفاً لعلّها لإسم حبيب، أو أحرف أسماء عاشقين قد خانهما الزمن وافترقا، أو عاشقين كبرا معاً حتّى شابا ".

تركت الشّجرة وفكري يُخاطر ذاته، مشيت ومشيت وأنا أتأمّل من حولي أروقة المكان. كان واسعاً، حسبت نفسي في فسحةٍ منزوية من الأرض لا علاقة لها بالعالم الخارجي. مشيت بعد، حتّى وجدتُ قدميّ أمام نهرٍ يجري بانسيابٍ فاتنٍ راق لناظريّ، وقد أسر بصري، فجلست عند ضفّة ذلك النّهر سارحة. أخفضت يدي وجمعت لؤلؤ الماء في كفّي ورفعته إلى فمي فرويت عطشي. مرّت عصافير الحقل من فوقه مغرّدةً، ولحقتها فراشات المرج مداعبةً تلك الورود المصطفّة على أطراف النّهر، وشمس النّهار تلامس وجه النّهر عاكسةً أشعّتها الذّهبيّة على صفحات الماء، وأغصان الصّفصاف المتدلّية إلى مياه الغدير كأنّها تروم امتصاص عذوبتها. أخذني هذا المشهد من موكب الزّمن المتسارع نحو اللّاشيء، فانفردتُ بنفسي وامتنعت عن تجوالي وأفكاري حيث أرغمت محرّك عقلي أن يتوقف، وتركت حنايا ذاتي وشأنها. رحت أحسُّ دون إدراك، فرُحتُ أشعر بسواكن أعماقي، ويخاط في داخلي نسيج هدوء واستقرار الحياة في هكذا مكان.. هذا المكان ليس بمكان أنتمي إليه جسديّا فقط، بل روحيّاً أيضاً، أروي به ظمأ

سكينة الاستكفاء، وأُسكت به مجاعة حلاوة الحياة. وكأنّني قد نلت عناقاً قد حلمت به بعد نهارٍ شاقٍّ أجهد بدني وقلبي.

بعد ساعةٍ، وقد مرّت كدقيقة وأنا على ذاك الحال، استفقت من تيار الحلم الذي كنت أرقد فيه. وحين صحوت من شرودي في تماوج النّهر، لاحظت أن الحبيبين قد عادا أمام ناظري. راحا يمشيان ويخطوان ودنا منّي. "هل هما يتوجّهان نحوي؟" إلّا أنهما مرّا بجانبي واجتازاني وقفزا حتّى هبطت أجسادهما في بقعة النّهر، وراح شعر الفتاة اللّيلي الطويل بالانسياب على المياه في تناسقٍ مع تمايل صفحاتها. أخذا يداعبان الماء، يتمازحان، يرشّان بعضهما الآخر مياه النّهر، ويضحكان.. كلُّ زاويةٍ من مكاني هذا هي مبعثٌ للذّكريات، مرقد للأحلام، وهي شعلةٌ توقد نيران الشّغف والحبّ. مرّةً أخرى، تركت الحبيبين خلفي ومشيت منقادةً بالغريزة لأجول وأكشف روائع المكان أكثر..

تركت ضفّة النّهر ورحت أخطو في السّهول. مرّ طيرٌ من فوقي وجال في خاطري لو أنّني مثله وقد وهبني الله جناحاً لأجول حول المكان بنظرةٍ أوسع فأُكحل ناظريّ بثناياه. مشيت في السّهول الخضراء بعد، وهبطتُ في أودية، فمشيت بهدوء أراقب المكان أكثر حتّى لمحت راعياً ونعاجه بيضاء الصّوف، يمشي في المروج الخضراء حاملاً عصاه، ويتبعه كلبه وقطيعه. سار الرّاعي وعيناه الكبيرتان محدّقتان بالفضاء الواسع أمامه. سار وعلى وجهه أمارة الحنين، لربما حنينٌ لنعجٍ قد فقده، أو حبٌّ في هيئة امرأةٍ قد ارتحلت، أو ربما لماضٍ ملؤه الشوق لأيّامٍ منزلها الذاكرة الآن ليس إلّا. تُرى كم من ربيعٍ قد صرف من عمره يرعى قطيعه في البرية؟ وهل هذا حقّاً ما كان يبغاه من مصير حياته؟

جلت أكثر بعد حتّى راحت قدماي تأخذانني صعوداً نحو جبلٍ شامخ كالجبارة قاسٍ ومنتصب. بدأ بدني يرتجف قليلاً، فقد بدأ الطقس يميل هنا إلى برودةٍ بعد أن كان دافئاً في السّهل. صعدت أكثر على أرض الجبل المكسوّة بالحشيش الأخضر، المغطّى بطبقٍ من بذور الزّهور. وأنا أسير لامست أنفاسُ الجبل حواسي فاهتزّت نفسي وروحي. استمرّيت بالصّعود حتّى وصلت إلى قمّة الجبل، فأُسرت بصورة الحياة السّحرية من الأعلى.

نظرت من حولي فوجدت عرائس الجبل؛ أشجّار الأرز، رمز مجد الأوّلين والآخرين, تلفّ شخصي. ونظرت إلى أسفل الجبل فشعرت وكأنّ مناجاتي لله قد استجيبت ورأيت العالم من عيون طيرٍ واسعة. جال نظري بين الجدول الّذي انشقّ بين سرائر الحقول الّتي امطتتها رؤوس نعاج الرّاعي، والأنهر الّتي أكملت الجريان بين السّهول، و بين أشجّار الأرض الّتي بدت وأنا بجانبها متعاليةً ضخمة إلّا أنّها من هنا بدت نقطة طفيفة. راقبت العصافير تطير من جذع شجرةٍ إلى جذعٍ أخرى كأنّها تبحث بين أوراقها عن ضائعٍ عزيز. وراح نظري إلى بيوت الجبل وكان الدخان يتصاعد من فوهة الدواخين على سطح المنازل، فجال عقلي بتخيل عائلات تتدفّأ حول موقدة "الصّوبة". كان هذا المشهد بمثابة سرٍّ قد أبيح لي من أسرار الحياة وبواطنها.

جلست على منحدر الجبل ورحت أصوّر المشهد هذا بمقلتيّ. أيقظ هذا المنظر فيّ أحاسيس لم أكن أدري أنّها موجودة، لكنها حتماً مبطّنة، فمسح عن روحي مرارة وصدأ الأيّام. الحياة من هنا بدت كحلمٍ أنيس خشع له بصري. وأنا أشرب من خمرة هذا الحلم حتّى ثملت. قدماي تتدلّى من تحتي على الحافّة، ونفسي تتأرجح بين لجج الحياة وهاوية الموت وقد أتوقّع من ذاتي الخوف والهلع بجلستي تلك من على مرتفعٍ كافٍ بتجزئتي إلى أشلاء، إلّا أنّ ما كان حقّاً يتبلور فيَّ هي يقظة روحيّة نبعت من الكون الّذي حاوطني وتدرّج إلى أعماقي.

توارى النّهار ولفّت الشّمس وشاحها في ساعة مملوءة بسحر هدوء ذلك الغروب. انبسطت على ظهري ولفّ بصري بساط السّماء الأسود الذي يتأهب للترصّع بحبّات لؤلؤ مرصوص. أخذت أناظر السّماء الّتي أولدت فيّ عاطفةً جديدة قد انبثقت من اللّاشيء أو من كل شيء، من صدى أصوات الضّفادع الذّي بات يغدو عن ضفاف الجداول وضبح البوم، ومن نسيم الهواء العليل الّذي بثّ في حناياي أحاسيس كأمواج البحر متصاعدة منخفضة. خشعت نفسي. أمام عظمة كلّ ما هو موجود أمام ناظري وكلّ ما هو منكشفٌ على مسامعي، ولوهلةٍ ما شعرتُ كأنّي ملاكٌ في نزهةٍ أجول أطراف الجنّة.

وأنا على ذاك الحال، انجرف على مسامعي صدى صوت أغاني وكلام ليسا ببعيدين. كعادتي الحشريّة، سرت وراء حبل الموسيقى حتّى رأيت مجموعةً من الفتية والفتيات في سنّ الشّباب يجلسون سويّاً، كلٌّ فاعلٌ شيئاً محدّداً، فمنهم من ينصب الخيم، ومنهم من يوقد نار الحطب، ومنهم من يحضّر الطّعام.. وكان الشّاب – الحبيب - جالساً بجنب جذع شجرة وأنامله راحت تخطُّ الموسيقى على صفوف الأوتار ويغنّي "اللّيل يا ليلى يعاتبني.." وهو يميل مع الألحان. راقَ لي المشهد فدنوت على صخرةٍ قد وجدتها بالقرب منّي، ورحتُ أشاهد جلسة هؤلاء الشّبيبة فأضحك حين يروون القصص "المرعبة" فيخاف بعضٌ منهم، أو حين يغنّي بعضهم بلا تناسق مع الألحان المعزوفة ويرقصون بعفويّة مع الدقّ على الطّبل، وأشعر بالدّفء والأنس حين أناظرهم جالسين بهدوء حول النّار محادثين بعضهم البعض.

خلال ذلك، بدأ النّعاس يغلبني فبحثت من حولي إلى أن وجدت كوخاً صغيراً فقصدته آملة أن أجد مكاناً لأرقد فيه هذه اللّيلة. دخلت فوجدت امرأةً بدت لطيفة وسألتها عن ما إن هناك حجرة شاغرة لأبيت بها هذه اللّيلة، فأخبرتني بأنّها تعيش وحدها هنا وأنّ بإمكاني البقاء. دلّتني إلى الغرفة الّتي سأبقى بها وسألتني إن كنت أحتاج شيئاً آخر ولكنّي نفيت ذلك وشكرتها. عندما دخلت الغرفة، جلست بالسّرير الّذي توسّطها وتنهدت بعمقٍ كأنّ نَفَسي كان محبوساً في صدري منذ الأزل. أغمضتُ عيناي واستسلمت للنّوم.

لاح الفجر وسال النّور البنفسجي بين سواكن نسماته. استفقت من نومي فقمت واقفةً من على السّرير. رتّبت الغرفة وأعدتها إلى سابق عهدها، وخرجت من الحجرة باحثةً عن السّيدة اللّطيفة دون جدوى، "لربما لاتزال نائمة" ظننت في ذاتي. كنت أود أن أشكرها أو أن أترك لها ورقة، لكنّي لم أجد ورقةً ولا قلماً، ولم يعد بإمكاني البقاء أكثر فقد توجّبت عليّ العودة إلى المنزل.

عدتُ أدراجي حتّى وصلت بيتي في الصّباح وقد بانت الشّمس في السّماء. ففتحت الباب واستقبلتني كلمات " حبيتك وبحبك تيبطل الموج..." حيث كان أبي يستمع للمطرب الكبير "ملحم بركات" كعادته على البلكون وفي يده جريدة النهار ليطّلع على كل ما هو جديد وأمّي في المطبخ تحضّر ركوة القهوة لقضاء "الصّباحيّة". دخلت حجرتي، غيّرت ملبسي ورحت أصبّح أمّي وأقبّلها فرأيت بضع لفّات أوراق العنب الّتي قد حفظتها لي أمّي من عشاء البارحة وهي تعلم أنّها المفضّلة لدي. "شو بحبّك!!"، أخذتها بالأحضان. من بعدها أخذت أقراصاً محلّاة وجلست جوار أبي على الشّرفة وصبّحته هو بالتالي وقبّلته، وجالسته منصتين لأعظم ما خلّفه الأستاذ ملحم بركات.." قلتلك وبقلك هوانا مكتوب، والدمع مكتوب ع ورق الأسرار.." ثمّ أتت أمّي وانضمّت إلينا ساكبةً القهوة بفناجين القهوة العربيّة المزخرفة برسومات أوراق الزيتون وزهرة شقائق النّعمان، فغدونا بأحاديث طفيفة مع صوت الموسيقى في الخلفيّة.. هكذا تكون صباحيّتنا المؤنسة في مكاني هنا.

بعد أن انتهت "الصّباحيّة"، وقد كان يوم أحدٍ، يوم عطلة أبي من عمله، قمنا لنجهّز وجبة الغداء فنحن عادةً ما نتناولها باكراً في أيّام العطل. قامت أمّي بفرم خضرة "التّبولة" وقمت أنا بدوري بشكِّ اللّحم حيث استلم أبي كانون النّار. كلٌّ قام بدوره إلى أن انتهينا من التحضيرات وجلسنا للأكل. إثر انتهائنا من الطّعام، قمنا إلى حديقة منزلنا، الّتي كانت قد زرعتها أمّي وترعاها يوميّاً، لشرب الشّاي..هكذا هي حياتنا في مكاني؛ بسيطة، مترنّمة بالدّفء.

قد تسألني في أيِّ مكانٍ أنا؟ أنا في مكانٍ ليس مجرّد مكان، أنا في بلدٍ تتنوّع تضاريسه من سهولٍ ووديان إلى جبال، تتنوع طبيعته من أشجارٍ و ورود بشتّة الأشكال، ويغدو فيه النهار بسلام ويمضي اللّيل بسكون. أنا في بلدٍ مرّت به حضاراتٌ عدّة وتغذّت أجياله من ثمار هذا التاريخ. أنا في بلدٍ يهوى الطّرب الأصيل, يحبّ الحياة إذا ما استطاع إليها سبيلا. أنا في بلدٍ أفتخر بانتمائي إليه وإلى تراثه من أرزٍ شامخ إلى بيوته المملوءة بدفء التّجمّعات والمأكولات اللّذيذة المشبّعة بحبّ ونفَس اليدين الّتي عملت في تحضيرها.

أين أنا؟ أنا في لبنان.. في مرج الحياة، في بلادٍ كلماته موسيقى. أنا في لبنان، شماله أو جنوبه، لا تختلف الحكاية. لبنان بلد السلام ووطن الحب.. مضجع الحالم، ملجأ الذّليل، ذكريات الشّيخ، ومجد الشّبيبة، هو الماضي والحاضر. لبنان هو لسيق ولده ولا يفارقه، فكما يقول الشّاعر أبو تمام " نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى, ما

الحُبُّ إِلّا لِلحَبيبِ الأَوَّل. كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَألَفُهُ الفَتى وَحَنينُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنزِلِ". لبنان هو ليس فقط بمكان، لبنان نغمةٌ تولد من الروح وتعيش في الذاكرة أبداً. قد تسألني أين أنا.. أنا في لبنان، جنّة الله على الأرض.